النظم العسكرية للجيش الصليبي بمملكة بيت المقدس (492-690هـ/1099-1291م) دراسة تاريخية في (الخطط والأساليب)

د. محمد علي إسماعيل*
د. عبد الله سالم بازينة
د. فاطمة إبراهيم طرينة
د. محمد إمحمد البيطة
كلية الآداب – جامعة مصراتة – مصراتة
*m.esmail@art.misuratau.edu.ly

تاريخ الاستلام 2021.03.24 تاريخ النشر 2021.07.12

الملخص:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد.

كانت بلاد المشرق الإسلامي أرضا خصبة، ومسرحاً لأحداث جسيمة طلية تاريخها عبر العصور، فشهدت العديد من النزاعات والحروب الداخلية والخارجية، بسبب عدم وجود سلطة مركزية قوية وقادرة، وخاصة في ظل ضعف الخلافة العباسية، وانفصال بعض أجزائها عنها انفصالاً شبه تام، الأمر الذي مكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على مناطق مهمة في المشرق، وخاصة بلاد الشام، وتأسيس عدة ممالك صليبية فيها، إلاّ أن نجاح الدولتين الزنكية والأيوبية، في توحيد الجبهة الإسلامية، ورفعها لراية الجهاد ضد الصليبين، مكنهما من توجيه ضربات موجعة لهم باستعادتهم لإمارة الرها وبيت المقدس.

الكلمات المفتاحية: الجيش الصليبي، مملكة بيت المقدس، الملك، المارشال، التجسس.

المقدمة:

بدأت الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في القرن الحادي عشر الميلادي، بقيادة ملوك أوروبا وأباطرتها، تحت زعامة البابوية، بعد دعوات البابا "أربانوس الثاني" باستعادة السيطرة على الأماكن المقدسة فيه –حسب معتقدهم– وقد تزامنت هذه الحملات مع ما يعانيه المشرق الإسلامي من حالة تشتت، وتجزئة، وخاصة بعد أن دب الضعف في كيان الدولة العباسية في القرنيين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وفقدت سيطرتها على أطرافها، وتقسمت أملاكها، واستقل أغلبها عن السيادة المركزية، مما أسفر عنه ظهور عدة دويلات متنافسة فيما بينها، فضلاً عما تعانيه هذه الدويلات من ضعف وانحلال سياسي، الأمر الذي مكن الحملات الصليبية من تحقيق بعض الانتصارات، والسيطرة على عدة أراضي إسلامية، وإنشاء ممالك صليبية فيها.

ومما لاشك فيه إن علو شأن هذه الممالك الصليبية واستمرارها وأفولها مرتبطة بشكل كبير بوجود حكام أكفاء على عرش هذه الممالك، وبناء على ذلك تمتع ملوك مملكة بيت المقدس الأوائل بالسلطة التامة، الأمر الذي دفعهم للقيام بتوزيع الأدوار والصلاحيات داخل هذه المملكة، وأدركوا بثاقب نظرهم أنه لابد من وجود قوة عسكرية وجيوش ذات مستوى عالٍ من الخبرة والتنظيم داخل ممالكهم، فاهتموا بإصلاح الجيوش، وتقويتها في ظل الهجمات الإسلامية المتكررة عليهم لاسترجاع أراضيهم.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على الأنظمة العسكرية للجيش الصليبي في بيت المقدس، والسياسة التي اتبعها الملوك الصليبيون؛ لضمان بقائهم، وسيادتهم على الأراضي المقدسة في المشرق، وخاصة في ظل توحيد الجبهة الإسلامية، ونشاط حركة الجهاد ضد الصليبين أبان تلك الفترة.

وتهدف الدراسة لمعرفة التطور الحادث على الجيش الصليبي، من خلال التركيز على دراسة الأساليب، والأنظمة، والخطط المتبعة؛ وكذلك معرفة أثر تواجدهم في المشرق الإسلامي، واحتكاكهم بالجيوش الإسلامية في عدة معارك ومواقع حربية في إعادة تنظيم الهيكلية العسكرية لهذا الجيش وفق نظرة حربية إسلامية جديدة.

وتطرح الدراسة التساؤلات الآتية:

ما مكونات الجيش الصليبي المتواجد في المشرق الإسلامي؟ وكيف تمكن من حفظ الوجود الصليبي وضمان استمراره؟ وما الأساليب والوسائل العسكرية والدبلوماسية التي اتبعها لتثبيت نفوذه في المنطقة؟ هل نجح هذا الجيش في التأقلم والتعايش مع ظروف المنطقة من مختلف النواحي الديموغرافية والجغرافية والسياسية؟

وتقوم الدراسة على الفرضية التالية:

إن التنظيمات العسكرية التي اتبعها الجيش الصليبي في مملكة بيت المقدس، وخاصة بعد خوضهم لعدة معارك مع المسلمين، ومعرفتهم لجغرافية المنطقة ومناخها بعد استقرارهم فيها لمدة من الزمن، أسهمت بشكل كبير وفعال في تثبيت نفوذهم وسيادتهم.

وستنتهج هذه الدراسة **منهجاً تاريخياً** يعتمد على سرد الأحداث التاريخية، وتجميع النصوص لدراستها، وتحليلها؛ بغية الوصول لنتائج تاريخية مقنعة ورصينة.

أولاً: القيادة العسكرية:

1- الملك (The king):

ارتبطت القيادة العسكرية في مملكة بيت المقدس في المقام الأول بشخص الملك الذي يتولى رسم السياسة العامة للمملكة، فهو من يقرر إعلان الحرب، وكذلك من يقرر إنهاءها، وهو من يوجه الحملات العسكرية، وعقد معاهدات السلام والاتفاقيات، وقلما كانت قراراته ارتجالية في الأمور التي سبق ذكرها، حيث كان يأخذ في اعتباراته الرؤية القانونية ومطابقة الأعراف والتقاليد في تلك القرارات، مع مراعاة الأخذ بنصيحة المحكمة العليا[1] ويعتبر الملك من خلال الصلاحيات المخولة له القائد الأعلى للجيش[2]، وتمدنا بعض المصادر التاريخية بأمثلة لتلك السلطة القيادية التي كان يتمتع بها الملك الصليبي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما

1- براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة: عبدالحافظ عبدالخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، القاهرة، 2001م، ص145.

2- محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979م، ص157.

ذكره المؤرخ وليم الصوري عندما قام الأمير جودفرى أول حكام مملكة بيت المقدس برئاسة حملة عسكرية بنفسه مع مجموعة من قادة الجيش، والتوجه نحو عسقلان لملاقاة الجيش الفاطمي عندما حاول استرداد بيت المقدس[3].

وفي مناسبة أخرى يذكر المؤرخ رانسمان بأن سقوط عسقلان كان وشيكاً بعد محاصرتها من قبل الصليبيين، إذ عرض حاكم المدينة آنذاك تسلميها لريموند الصنجيلي[4] (Raymond Sam Gilles) دون غيره لما يتمتع به من شهرة وحسن معاملة، إلا أن الأمير جودفري رفض تقديم أي مساعدة لإنجاز ذلك الاتفاق؛ لارتيابه في ريموند، مما أثار حفيظة الأخير وقرر الانسحاب مع بعض النبلاء الصليبيين، وترتب على ذلك أن ضاعت عسقلان من الصليبيين لتبقى إسلامية مدة خمسين سنة لاحقة[5].

تكشف لنا هذه الحادثة بوضوح بأن الملك هو صانع القرار في الأمور العسكرية، وأن أوامره نافذة على جميع أفراد الجيش وقاداته، غير أن هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها الأمير جودفري والملوك الصليبيين من بعده بدأت في الضعف أواخر النصف الأول من القرن الثاني

3- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1991-1994م، 164/2.

4- ريموند الرابع كونت تولوز: عرف فيما بعد (بريموند الصنجيلي) كان رجلاً متديناً ذا شجاعة ومكر، ترأس أكبر جيش خرج من جنوب فرنسا أثناء الحملة الصليبية الأولى، وكان أكبر القادة سناً، يمتلك مقاطعات شاسعة في فرنسا ورثها عن أسلافه تركها وأمضى بقية حياته في الشرق، حتى وافاه الأجل أثناء وجوده في القلعة التي شيدها أمام طرابلس، وسماها بقلعة الجبل ذلك سنة 498هـ/1105م. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية 259/2-260؛ بطرس تيوتوبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعة، ط1، القاهرة، 1999م، ص83، هامش 2.

5- ستيفن رانسمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، القاهرة، 1994م، 450/1.

عشر، بسبب عدم خضوع النجدات القادمة من أوروبا لسيطرة الملك، فهم غير مجبرين بحكم الأعراف والقوانين السائدة في تلك الفترة بالخضوع للسلطة الملكية[6].

كما أن الهيئات الدينية العسكرية غالباً ما ترفض دعم الحملات الصليبية دون أن يطالها القانون لارتباطها بالبابوية مباشرة[7] وفي هذا السياق يشير وليم الصوري إلى رفض هيئة الداوية[8] التعاون مع الملك آملريك في غزوه لمصر [9].

2- الكونستابل (The Constable):

يأتي الكونستابل في المرتبة الثانية بعد الملك في القيادة العسكرية، فهو بمثابة رئيس أركان حرب الجيش وفي حالة غياب الملك ينوب عنه في قيادة الجيش[10]، ومن مهامه العسكرية الإشراف على أفراد الجيش والمعدات، وهو المسؤول عن حماية مقر الملك، وكذلك دعم الجيش بالفرسان عندما يتعرض جيش المملكة للنقص بسبب تقاعس أي إقطاعية عن توفير ما يطلب منها من فرسان، ويعتبر أيضًا مسؤولاً عن معدات هؤلاء الفرسان[11] وأثناء الحملات العسكرية يعتبر الكونستابل الرئيس القضائي بموجب القانون العسكري، ويخضع جميع رجال السلاح من مرتزقة وجنود لسلطته ويستطيع إنزال العقوبة بهم، أما فرسان المملكة الذين ينتمون إلى طبقة

6- ر سي سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة: محمد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، ط1، دمشق، 1985م، ص162.

7- نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 1994م، ص14.

8- تأسست في سنة 118م، وضع أساسها هيودي؛ وجود فري أف أومر، وقد اتخذت من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس مقراً لها، ومن هنا جاءت تسميتهم باسم فرسان المعبد، والتي عرفت في اللغة العربية فيما بعد باسم الداوية. يُنظُر: محمد الخطيب، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار علاء الدين للنشر، دمشق، 2006م، ص121.

9- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 103/4.

10- موضى بنت عبدالله السرحان، تنظيمات الصليبيين في مملكة بيت المقدس وأثرها على أوضاعهم في بلاد الشام، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، الرياض، 2006م، ص238.

11- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص157.

النبلاء لا يحق له إيذاءهم وتقتصر العقوبة على قتل الحصان الذي يعتليه الفارس[12]، ومن مهام الكونستابل أيضاً الإشراف على إعاشة المحاربين المرتزقة وتدبير مصروفاتهم المالية[13].

3- المارشال (The Marshal):

يأتي بعد الملك والكونستابل في المرتبة العسكرية، وعليه أن يقدم واجب الطاعة والاحترام للكونستابل، وفي حالة غيابه يعتبر القائم مقامه في كل شيء[14]، ومن مهامه المكلف بها إقامة المعسكر في المكان الذي يحدده الملك أو من يحل محله، والاعتناء بتموين الجيش والتفتيش عليه والإشراف على توزيع الغنائم بين أفراد الجيش؛ إذا ما طلب منه الكونستابل ذلك، وفي حال غياب الكونستابل عن المعركة يتوجب عليه الوقوف إلى جانب الملك حاملاً الراية الملكية، أما دوره القضائي يعد أقل من دور الكونستابل، ويحق له الفصل في قضايا الأتباع الصغار، والمشرفين على اصطبلات الخيول، والخدم المصاحبين للجيش[15].

4- السنجال (The Seneschal):

ويسمى أيضاً باسم القهرمان، والمهام والاختصاصات العسكرية الملقاة على عاتقه قليلة إذا ما قورنت بمهام الكونستابل والمارشال، فمن مهامه الإشراف على الحصون والقلاع وتوفير التموين بها، وتجهيزها بحيث تكون على أهبة الاستعداد لأي عمل عسكري[16].

وثمة ملاحظة في هذا السياق على هذه الوظائف العسكرية في مملكة بيت المقدس، إذ لم تكن مماثلة لنظائرها في الغرب في تلك الفترة، ففي الغرب الأوروبي عندما أصبح لوظيفة القهرمان سلطة حقيقية قام الملك الفرنسي فيليب الثاني أغسطس[17](Philip II Augustus) بجعلها شاغرة مما أفقدها أهميتها، بينما في مملكة بيت المقدس بقية هذه الوظيفة موجودة[18].

12- المرجع نفسه، ص157.

13- براور، المصدر السابق، ص153.

14- ستيفن رانسمان، المصدر السابق، ص352.

15- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص158.

16- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص158.

17- فيليب الثاني أغسطس (575-619هـ/1180-1223م): تولى الحكم في فرنسا بعد والده لويس السابع، وكان رجلاً ذكياً يجمع بين الحذر والدهاء، وبين الشجاعة والحزم، تميزت فترة حكمه بالنزاع

رغم السلطة التامة التي تمتع بها الملوك الأوائل في مملكة بيت المقدس وكذلك اهتمامهم وحرصهم على توزيع الأدوار والصلاحيات داخل المؤسسة العسكرية، إلاّ أن ذلك الاهتمام لا يخلو من بعض السلبيات التي شكلت نقاط ضعف في التنظيم العسكري الصليبي، ففي عهد الملك بلدوين الرابع (Baldwin IV)[19] بدأت تظهر هذه السلبيات للعيان، إذ أن إصابة الملك بمرض الجدام حال دون تنفيذ الكثير من العمليات العسكرية ففي عام (573هـ/1177م) وصل إلى ميناء عكا أسطول بيزنطي من سبعين سفينة تحمل المحاربين لمساندة الصليبيين في الحملة ضد مصر إلاّ أن المرض أعاق الملك للقيام بهذه الحملة وخسر الصليبيون تلك المساندة البيزنطية[20].

في مناسبة أخرى يذكر المؤرخ رانسمان بأن الملك بلدوين الرابع حاول الاستيلاء على دمشق أثناء انشغال صلاح الدين بحصار حلب[21] عام (579هـ/1183م) لكنه أصيب بحمى شديدة، مكث على إثرها عدة أسابيع بين الحياة والموت وتفرق جيشه دون القيام بتلك المهمة[22].

مع الكنيسة، حيث استبدل رجال الدين في مجلسه وأصحاب الوظائف الإدارية بطبقة من المحاميين الإداريين، ترك ابنه وليم التاسع مع عمه وليم رئيس أساقفة رينز لحماية المملكة؛ ليلتحق بالحملة الصليبية الثالثة قاصداً الأراضي المقدسة. يُنظُر: أرنول، وصف أوضاع مدينة القدس والأماكن المقدسة (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1993م، 367/8؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، 228/15،230،232.

18- براور، المرجع السابق، ص151.

19- بلدوين الرابع (570-581هـ/1174-1185م): تولى الحكم في مملكة بيت المقدس بعد أبيه عموري الأول، وأمه أجنس بنت جوسلين حاكم الرها، وكان عمره عند تتويجه على العرش في كنيسة القيامة ثلاثة عشر عاماً، وأصيب بلدوين الرابع بمرض الجدام؛ لذلك لقب بالأجدم. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 173/4-176.

20- ستيفن رانسمان، المرجع السابق 472/2.

21- حلب: بلدة قديمة ذات قلعة مرتفعة حصينة، بها مقام إبراهيم الخليل تتميز بوفرة خيراتها، وطيب هوائها، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى إبراهيم عليه السلام، إذ كان يحلب فيها غنمه ويتصدق بها. يُنظُر: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري المقدسي، (عاش في القرن الرابع

إن اعتلال صحة الملك بلدوين الرابع وعجزه عن تصريف الأمور في المملكة ترتب عليه ازدياد قوة ونفوذ النبلاء الإقطاعيين الأمر الذي أدى إلى تدهور أحوال المملكة الصليبية تدهوراً سريعاً ترتب عليه خسارتهم لبيت المقدس على يد صلاح الدين فيما بعد[23].

بعد أن خسر الصليبيون بيت المقدس تقلد عرش المملكة الصليبية ملوك يفتقدون لمؤهلات القيادة التي تمتع بها الملوك الأوائل، مما أثر سلباً على بعض العمليات العسكرية والتوسع على حساب الجانب الإسلامي، فمثلاً عندما تقلد الملك عموري الثاني[24] (AmuaryII) عرش المملكة الصليبية جنح إلى السلم مع المسلمين، وقد فقد الصليبيون جرّاء هذا المنحى إمكانية الاستفادة من الإمدادات الأوروبية[25]، فعندما وصلت بعض العساكر الفرنسية إلى الشرق الإسلامي نهاية عام (598هـ/1202م)، اجتمع قادة هذه العساكر مع الملك عموري الثاني يستعجلونه ويحثونه على الخروج للحرب من أجل الصليبيين إلا أن الملك رفض ذلك الطلب، وحاول السيطرة على اندفاعات هؤلاء القادة، وعارضهم فيما يرمون إليه، الأمر الذي أغضب قادة

الهجري/العاشر الميلادي) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، لندن، 1877م، ص155؛ صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1954م، 417/2.

22- ستيفن رانسمان، المرجع السابق، 491/2.

23- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 9، القاهرة، 2010م. 55/2.

24- عموري الثاني: ورث مملكة قبرص بعد وفاة أخيه غي لوزجان (591هـ/1194 م) حضر إلى بلاد الشام وتزوج من إيزابيلا وريثة عرش مملكة بيت المقدس، وأرملة هنري دي شمبانيا سنة (495هـ/1198م) وبهذا الزواج أصبح عموري ملكاً لبيت المقدس وبذلك تم توحيد مملكتي قبرص وبيت المقدس، توفي سنة (601هـ/1204م). يُنظُر: وليم الصوري، ذيل تاريخ وليم الصوري (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1993م، 453/8، 454، 516.

25- سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، 193/2.

هذه العساكر حيث عادت أدراجها إلى شمال سوريا بعد أن نعت أحد قادتها الملك عموري الثاني بالجبان[26].

ثانياً: الخطط العسكرية وإدارة المعارك.

اتسم أسلوب القتال لدى الجيش الصليبي بالحيطة والحذر الشديدين، ويؤكد ذلك أسامة بن منقذ أحد الشهود العيان الذي خاض معارك ضد الفرنجة في تلك الفترة إذ يقول: "الفرنجة هم أكثر الناس احترازاً في الحرب"[27]، ويبدو أن الحذر الذي اتسم به المحارب الصليبي في الفترة المبكرة لوجودهم في بلاد الشام كان بسبب قلة قواهم البشرية، فهم يرون أن نتائج أي معركة هي موضع شك، وأن عواقب الهزيمة تعني فقد عدد كبير من محاربيهم وهم ما عليه من القلة في تلك الفترة لذلك هم أكثر الناس حذراً أثناء الاشتباك مع العدو[28] ويؤكد ذلك مؤرخ الحملة الصليبية الأولى فوشيه الشارتري إذ يقول: "في عام (495هـ/1101م) في بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدناً قليلة وشعباً صغيرًا... ونجح في حماية مملكته من جميع النواحي، وأنهم اكتشفوا أنه محارب بارع، على الرغم من قلة رجاله فلم يجرؤ على مهاجمته، ولو كانت لديه قوة عسكرية أكبر لكان يقاتل العدو مسروراً"[29].

وثمة سبب آخر يفسر حذر المحارب الصليبي الشديد، وهو انتماؤه إلى كيان دخيل يحيطه الأعداء من كل جانب ويتحينون الفرصة للإطاحة به، كل ذلك جعل من المحاربين الصليبيين أكثر الناس احترازاً في الحرب ولا يدخلون معركة إلا إذا كانت نتائجها مضمونة في الغالب، ويبحثون دائماً عن النصر السريع السهل مستخدمين الحيلة والخداع لتحقيق ذلك النصر[30].

26- ستيفن رانسمان، المرجع السابق، 141/3.

27- أسامة بن منقد، الاعتبار، تحقيق: عبد الكريم الأشتر، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص72.

28- ر سي سميل، المرجع السابق، ص216.

29- فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الشروق، عمان، 1990م، ص166.

30- قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج 27، 1981م، ص27.

ويسوق لنا ابن شداد مثالاً على ذلك الحذر الصليبي، فذكر أنه في أحداث عام (588هـ/1192م) هاجم ريتشارد قلب الأسد قافلة تابعة للمسلمين قادمة من مصر، حيث تنكر في زي أعرابي ليستطيع التعرف على القافلة، ثم هاجمها بعد أن تأكد أن حراسها قد غلبهم النعاس وباتوا يغطون في نومهم واستولى عليها[31].

من خلال تتبع الأحداث يبدو أن أساليب وخطط الصليبيين في القتال مرت بعدة مراحل، ففي بداية الاستقرار الصليبي ببلاد الشام كان المحارب الصليبي يتعامل مع نظيره المسلم بكل حذر و يقظه لمعرفة أساليبه في القتال، ثم يتعامل معه بكل ثقة والسبب في ذلك أن المملكة الصليبية كانت تعاني من قلة الرجال للدفاع عنها، أما في أثناء فترة التوسع الصليبي في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي كان لزاماً على الصليبيين أتباع أسلوب الهجوم بدل المدافعة، لأن مهمتهم التوسعية لم تكتمل بعد حتى تحقق للمملكة أقصى اتساع لها بسقوط عسقلان عام (547هـ/1153م)[32] أما في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي يبدو أن الصليبيين انتهجوا أسلوب تجنب خوض المعركة، إلا إذا كانت مؤشرات النصر مضمونة، وذلك بسبب توحيد الجبهة الإسلامية، ونشاط حركة الجهاد الإسلامي، وللتدليل على هذا الطرح نذكر بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية التي تجنب فيها الصليبيون خوض المعركة قدر الإمكان، ففي عام (573 هـ/1177م) دخل الجيش الصليبي في معركة مع الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي عند تل الجزر[33] حيث خرج صلاح الدين على رأس جيش قوامه عشرون ألفاً قادماً من مصر، متوجهاً إلى عسقلان، لمقاتلة الصليبيين، فقرر بلدوين الرابع تجنب خوض

31- بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1994م، ص318.

32- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: سمير شمس، دار صادر، ط1، بيروت، 2009م، 93/11؛ وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 372/3.

33- تل الجزر: حصن من أعمال فلسطين، ويقع إلى الجنوب الشرقي من الرملة في منتصف الطريق بين يافا والقدس، يصل بين الساحل والمنطقة الجبلية. ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، 41/2؛ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، دار الهدى، (د.م)، 1991م، 364/2.

المعركة مع المسلمين نظراً لتفوقهم العددي، ولاذت قواته بالفرار، فاستهان صلاح الدين بالقوات الصليبية وتفرق جنوده وأخذوا يجمعون الغنائم، ويبدو أن القوات الصليبية التي بقيادة أرناؤوط كانت تترقب تحركاتهم فأغارت عليهم بغتةً، وانهزم جيش صلاح الدين هزيمة ساحقة، وأنقذ الصليبيون المملكة من خطر محقق[34].

وفي عام (579هـ/1183م) أيضاً استغل الجيش الصليبي خروج صلاح الدين الأيوبي إلى حلب، وقاموا بالإغارة على أعمال دمشق، ولما علموا بقدوم صلاح الدين الأيوبي تخندقوا بجبل هناك، ورغم محاولات الجيش الإسلامي استدراج القوات الصليبية والعمل على مناوشتها للقائهم في معركة فاصلة إلا أن الصليبيين نجحوا في تجنب تلك المعركة واضطر صلاح الدين الأيوبي للانسحاب والرحيل[35].

أما من حيث تكتيكات الجيش الصليبي ونجاحه العسكري كان يعتمد بشكل كبير على نظامه الداخلي من حيث تماسك الفرسان مع الجنود المشاة أثناء المعركة، إذ يوفر المشاة الحماية الكاملة للفرسان الذين يشكلون الركيزة الأساسية للجيش الصليبي، ولو حدث خلخلة لقوات الجيش، وتم فصل الفرسان الراكبة عن المشاة يصبح الفارس الراكب أكثر عرضة لسهام العدو، وقد حدث ذلك أثناء معركة حطين إذ تمكن صلاح الدين الأيوبي من فصل الفرسان الصليبيين عن المشاة وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين[36] وقد أدرك الصليبيون ذلك أثناء إدارتهم للمعارك وتكتيكاتهم العسكرية، وغالباً ما كانوا يحشدون الجنود المشاة في معاركهم ليكونوا حاجزًا دفاعيًا بين الفرسان المثقلين بالدروع والفرسان المسلمين الذين تميزوا بسرعتهم وخفة أسلحتهم[37].

34- ابن الأثير، المصدر السابق،214/11؛ ابن شداد، المصدر السابق، ص77؛ ر سي سميل، المرجع السابق، ص 272.

35- ابن الأثير، المصدر السابق، 240/11.

36- براور، المصدر السابق، ص408.

37- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد الشاعر، ط2، مؤسسة الإسراء للنشر، القاهرة، 1998م، ص111.

اعتمد الصليبيون كثيرًا على الفرسان أثناء احتدام المعارك، ولكن بسبب ثقل معدات الفارس وأسلحته فإن خيولهم سرعان ما يصيبها الإعياء، وبالتالي أصبح الفارس الصليبي لا يجيد أساليب المراوغة والكر والفر التي يتميز بها الفرسان المسلمون، وكانت تلك نقطة ضعف في الجيش الصليبي[38].

نتيجة للاحتكاك الحربي مع المسلمين خبر الصليبيون كثيراً من أساليب القتال لدى المسلمين، منها الاعتماد على الفرسان الخفيفي الأسلحة، كذلك الابتعاد كثيراً عن مصادر الماء، وعدم الانجرار والمسير وراء جيش منسحب، وعدم الانتشار بحثاً عن الغنائم حتى لا يقعوا فريسة في يد المسلمين الذين اشتهروا بالمراوغة والدهاء[39].

لقد حرص الصليبيون أثناء الاستعداد للقتال على تنظيم تشكيلاتهم في كراديس، والمحافظة على ذلك كانت إحدى المشكلات التي واجهت الجيش الصليبي، فقوات المسلمين كانت تحاول إحداث ثغرات في صفوف القوات الصليبية من أجل جرهم إلى حرب في ظروف غير ملائمة لهم[40]، غير أن القوات الصليبية نجحت في مواقف كثيرة بالمحافظة على تشكيلاتها، فمثلاً في عام (566هـ/1170م) نجح الملك عموري الأول من صد قوة من الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي جنوب فلسطين، حيث حاول الجيش الإسلامي إحداث ثغرات في صفوف الصليبيين، غير أن محافظة الصليبيين على تراص صفوفهم مكنتهم من صد هذا الهجوم، وأنقذت الجيش الصليبي من هزيمة محققة[41].

رغم اهتمام الصليبيين ومحافظتهم على تنظيم ورص صفوفهم وحرصهم على الانضباط العسكري إلا أن ذلك الانضباط كثيرًا ما اخترق من قبل المحاربين الصليبيين، وقد شرعت قوانين تجبر المحارب الصليبي على عدم اختراق الصف وتمنعه منعاً باتاً أن يترك أحد المحاربين مكانه دون إذن، ويستثنى من ذلك الفارس الذي يقوم باختبار فرسه وعدته بالجري لمسافة

38- نفسه، ص166.

39- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص166.

40- ر سي سميل، المرجع السابق، ص198.

41- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 133/4.

قصيرة، وفيما يتعدى ذلك يعتبر مخالفة للأوامر العسكرية ويعرض المحارب نفسه لعقوبات صارمة[42].

ويبدو أن عدم اكتراث المحارب الصليبي وامتثاله لأوامر قادته أثر سلبًا على كثير من العمليات العسكرية للصليبين ويرجع السبب في ذلك إلى عدم وجود قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء، وعادة ما كان عدم الانضباط هذا ينطبق على النجدات الوافدة من أوروبا، إذ كانت هذه النجدات تريد تحقيق نصر سريع حتى يتمكنوا من العودة إلى بلدانهم، لذلك كان جنود هذه النجدات أقل انضباطًا وأكثر تهوراً لذلك لم تستفد المملكة الصليبية من هذه النجدات خصوصًا في نهاية القرن الثالث عشر[43]، وقد وصفت لنا المؤرخة البيزنطية آنا كومونينا ابنة الإمبراطور البيزنطي إلكسيوس كومونين خصائص المحارب الصليبي بقولها: "... من خصائص شعب الفرنجة الذاتية الاستقلال رفضه رفضًا باتًا الالتفات إلى التدريب العسكري والأخذ بالفنون العسكرية..."[44] وفي ذات السياق تذكر آنا كومونينا: "أن الفرنجة... إذا شن خصومهم عليهم الحرب في العراء هاجموهم لكنهم لا يلبثون على ذلك طويلاً بسبب ثقل ما عليهم من لباس الحرب، وبسبب عدم مبالاتهم وإذا ذاك يكون التغلب عليهم من أيسر الأمور"[45].

ثالثاً: المؤسسات المساعدة في تنظيم الشؤون الحربية.

1- المعسكرات الصليبية:

حرص الصليبيون منذ أن وطئت أقدامهم بلاد الشام على اختيار المواقع المناسبة لإنشاء معسكراتهم[46]، فأثناء الحملة الصليبية الأولى عندما حاصر الصليبيون بيت المقدس عام (492هـ/1099م) وأقاموا معسكرهم بالقرب من أحد جوانب سور المدينة وعندما رأوا أن الجانب

42- ر سي سميل، المرجع السابق، ص201.

43- جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1981م، ص261؛ موضى بنت عبد الله السرحان، المرجع السابق، ص386.

44- آنا كومونينا، الكسيادة، ترجمة: حسن حبشي دار المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2004م، ص433.

45- آنا كومونينا، الكسيادة، المصدر السابق، ص434.

46- موضى بنت عبد الله السرحان، المرجع السابق، ص369.

الذي يحاصرون المدينة من خلاله قد تم تحصينه بقوة وشددت الحراسة عليه من قبل المسلمين، نقلوا معسكرهم إلى جهة أخرى من سور المدينة كانت أقل انخفاضًا وأقل حراسة وشددوا حصار المدينة من تلك الجهة حتى تم لهم الاستيلاء عليها(47).

كما اهتم الصليبيون بحراسة معسكراتهم وحمايتهما من أي هجوم مباغت قد تتعرض له من قبل الجيش الإسلامي، ففي عام (548هـ/1153م) أثناء حصار الصليبيين لمدينة عسقلان قام الملك بلدوين الثالث بتكليف دوريات حراسة في كل الأوقات بالإضافة إلى فرق كشافة في المناطق القريبة من المدينة، لتفادي أي هجوم مباغت من قبل أهالي المدينة المحاصرة أو من قوات الجيش الفاطمي التي جاءت لنجدة المدينة المحاصرة، وكان لهذه الإجراءات من قبل الملك دور في الحفاظ على المعسكر الصليبي متماسكاً حتى سيطروا على المدينة(48).

رغم اهتمام الصليبيين وحرصهم على اختيار الموقع الاستراتيجي والمناسب للمعسكرات الصليبية أثناء عملياتهم العسكرية، إلا أنهم كثيرًا ما كانوا يتعرضون إلى انتكاسة وخسائر في قواتهم بسبب تركهم لحراسة المعسكرات، أو بسبب سوء اختيارهم لإقامة معسكراتهم في أماكن مناسبة بسبب جهلهم لجغرافيا المنطقة ومناخها(49) فبعد نجاح الحملة الصليبية الخامسة في الاستيلاء على دمياط(50) عام (616هـ/1219م)، واصل الصليبيون المسير للاستيلاء على

47- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 111/2.

48- وليم الصوري: تاريخ الحوب الصليبية، 355/3؛ أبو يعلى حمزة بن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص321.

49- هانز ابرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1990م، ص387.

50- دمياط: مدينة مصرية على ساحل البحر، عرفت قديماً باسم راغس ثم إديسا تتميز بهوائها النقي، استولى الصليبيون عليها في الحملة الصليبية الخامسة؛ ليتقدموا بعد ذلك لمنازلة جيش الملك الكامل الذي استطاع أن يقطع الطريق بين الصليبيين ودمياط، الأمر الذي أدى بالفرنجة إلى أن يطلبوا الصلح ويخرجوا من مصر مقابل المحافظة على حياتهم، وكان ذلك في عام 618هـ/1221م. يُنظُر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1974م، ص275؛ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، 405/3.

القاهرة وتمركزوا على زاوية تتكون من النيل وأحد فروعه معتقدين أن هذا الموقع ذو حماية استراتيجية، استغل السلطان الأيوبي الكامل[51] جهل الصليبيين لطبيعة الأرض وقام بفتح القنوات، وكسر الحدود المائية، مما أدى إلى غمر جميع الأراضي بالماء، وقام بقطع الإمدادات بين الجيش الصليبي المتمركز في ذلك المكان على زاوية النيل، وقاعدته الموجودة في دمياط برًا وبحراً، الأمر الذي أدى بالجيش الصليبي للتراجع وسط خنادق مليئة بالوحل والطين، ترتب على ذلك فشل الحملة الصليبية برمتها ووقعت بعض السفن الصليبية وما تحمله من جنود في أيدي المسلمين[52]، وفي مناسبة أخرى عام (552هـ/1157م) تعرض المعسكر الصليبي لخسارة كبيرة في صفوفه بعد أن هاجمته قوات المسلمين بالقرب من بحيرة الحولة في أعالي الأردن وكان ذلك بسبب إغفال الصليبيين لحراسة معسكرهم[53].

أثناء فترة الصراع الحربي الفرنجي الإسلامي كثيرا ما كان المسلمون ينجحون في استخدام عنصر المفاجأة في حروبهم مع الصليبيين، فعندما تبتعد القوات الصليبية عن خيامهم ومعسكراتهم لغرض الاحتشاش أو الاحتطاب، وما أن يتيقن الفرسان المسلمون أنهم في غفلة حتى ينقضون عليهم فجأة ويقومون بقتلهم أو بأسرهم[54].

51- السلطان الكامل (615هـ/1218م-635هـ/1238 م): هو الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب لقب بأبي المعالي استمر في الحكم مدة عشرين عاماً، عقد معاهدة صلح مع الفرنجة وسلم لهم بيت المقدس وتوفي في دمشق عام (635هـ/1238م). يُنظُر: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957م، 269/3، 155/5؛ تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997م، 313/1.

52- أولفر أوف بادريون، الاستيلاء على دمياط، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج33، دمشق، 1998م، ص106/33-107.

53- وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، 409/3-410.

54- محمد بن محمد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، (د.م)، (د.ت)، ص158-159.

كما عانى الصليبيون من عمليات التسلل إلى خيامهم ومعسكراتهم لخطف الرجال[55]، فمنهم من كان يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بسكين أو بغيرها، فيأخذه أسيراً، وإن أبى قتله، كل ذلك جعل من الصليبيين يتخذون التدابير والإجراءات المناسبة لحماية معسكراتهم من هجوم المسلمين المباغت، ففي عام (616هـ/ 1219م) وبعد أن دخلوا مدينة دمياط قاموا ببناء خنادق عميقة وواسعة حول المعسكر الذي كان خارج المدينة لحمايته من هجمات المسلمين والبدو في المناطق المحيطة[56].

2- التموين:

إن تأمين الغذاء لأي محارب يعتبر من الضروريات الأساسية لإنجاح أو إخفاق أي معركة سواء كان ذلك في العصور القديمة أو الحديثة، ولذلك كان من أولويات أي قائد ناجح توفير الحد الأدنى من المؤن لجنوده.

قديمًا كانت تعبئة الجيوش وتزويدها بالمؤن معضلة كبيرة نظراً لصعوبة المواصلات، وقد يترتب على ذلك تلف التموين في بعض الأحيان قبل أن يصل إلى الجيش بسبب تعذر الاتصال بمصادر التموين حين نفادها، إذ كانت عمليات النقل هذه تتم عن طريق الحيوانات البطيئة الحركة، لذلك كثيراً ما كانت نتيجة المعركة تحسم لصالح الطرف الذي أخذ احتياطاته في توفير المؤن لجنوده[57] فالحملة الصليبية الأولى كادت أن تفشل في الاستيلاء على بيت المقدس حيث عانى الجنود الصليبيون من مصاعب جمة أثناء حصارهم للمدينة بسبب سيطرة المسلمين على

55- يبدوا أن عمليات التسلل والخطف هذه لم تكن من أفراد الجيش الإسلامي كما يصورها جوانفيل، وإنما كانت من قبل البدو الأعراب الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب لكل من الطرفين على حد سواء، والدليل على ذلك أن ابن شداد وصفهم باللصوص الذين يتسللون إلى خيام الصليبيين. يُنظُر: ابن شداد، المصدر السابق، ص249؛ جوانفيل، حياة القديس لويس (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1998م، ص75/35؛ جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ط1، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، 2000م، ص34.

56- ستيفن رانسمان، المصدر السابق، 315/3.

57- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عصر صلاح الدين، ط2، منشورات وزارة التربية أربيل، أربيل، 2003م، ص80.

مصادر الماء وكذلك إفسادها برمي الأوساخ والقاذورات فيها ليصبح المكان غير صالح لحصار طويل[58] الأمر الذي أدى إلى تخاذل أفراد تلك الحملة على محاصرة المدينة، واعترى أفرادها الخوف وقلة الأقوات، وقد وصف المؤرخ ريموندا جيل ذلك الموقف بقوله "راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق المجاورة، وتجاهلوا الإعداد لهجوم جديد، وفضل كل واحد منهم أن يشبع فمه وبطنه..."[59] ولولا قدوم مراكب قادمة من جنوة إلى ميناء يافا حاملة معها الرجال والمساعدات لأخفق الصليبيون في حصار المدينة والاستيلاء عليها[60].

كان لإهمال وعدم تركيز الجيش الصليبي على تموين جنوده، وكذلك سوء التقدير الجيد للمدة الزمنية التي قد تستغرقها المعركة، وما تحتاجه من مؤن الأثر السلبي على نجاح بعض الحملات العسكرية، وخير مثال على ذلك ما تعرض له الجيش الصليبي أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما حاصر دمشق، حيث توقع الصليبيون أن المدينة سوف تسقط في أيديهم من أول هجوم فحملوا معهم مؤن لا تكفي إلا لأيام قليلة، فترتب على سوء تقديرهم هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى منها سوء التخطيط الجيد ورشوة بعض القادة الصليبيون من قبل حكام دمشق كل ذلك أدى إلى انسحاب تلك الجيوش وفشل الحملة الصليبية الثانية[61].

رغم أن سياسة الصليبيين الدفاعية كانت تتطلب تمركز الجيش في قاعدة جيدة الإمداد، إلاّ أن صلاح الدين الأيوبي أدرك ذلك جيداً وعمل على قطع المؤن الوافدة للجيش الصليبي واستخدم ذلك سلاحاً لضرب القوة العسكرية للمملكة الصليبية[62] ففي عام (579هـ/1183م)

58- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 100/2؛ عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1997م، ص291.

59- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1989م، ص237.

60- وليم الصوري، المصدر السابق، 104/2.

61- وليم الصوري، المصدر السابق، 315/3-317؛ ابن الأثير، المصدر السابق، 65/11-66.

62- ر سي سميل، المصدر السابق، ص234.

قطع الإمداد على المعسكر الصليبي الموجود في صفورية[63] ترتب على ذلك مجاعة للجيش الصليبي[64] ولم ينقذ أفراد الجيش من الهلاك إلا العثور على بعض الأسماك في أغوار عين جالوت[65][66].

فكان نقص المؤن أحد العوامل التي عرقلت الكثير من العمليات العسكرية للجيش الصليبي ففي عام (586هـ/1190م) أثناء حصار الصليبين لمدينة عكا فقد الجيش الصليبي الكثير من رجاله بسبب تفشي المرض الذي انتشر بين أفراده، نتيجة المجاعة وغلاء المواد التموينية قبل قدوم الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوروبي، مما اضطر بعض أفراد الجيش الصليبي بالتوجه إلى المعسكر الإسلامي، عارضين عليهم خدماتهم مقابل تزويدهم بالمؤن الضرورية[67].

تكررت هذه الحادثة أثناء الحملة الصليبية السابعة عام (647هـ/1249م) عندما قام توران شاه[68] بإنزال أسطول من السفن في الفرع السفلي من النيل مهمتها اعتراض سفن الصليبيين

63- صفورية: قرية في فلسطين تقع في إقليم الخليل الأعلى إلى الشرق من ميناء عكا، وهي مدينة قديمة تجمعت فيها الجيوش الصليبية قبل معركة حطين عام (583هـ/1187م). صفي الدين عبدالمؤمن عبدالحق البغدادي، المصدر السابق، 845/2؛ مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، 171/1.

64- ستيفن رانسمان، المصدر السابق 498/2.

65- عين جالوت: أو أغوار جالوت، ويطلق عليه جالود وهو من أهم الأنهار الغربية الرافدة لنهر الأردن بعد بحيرة طبرية، وفي وادي جالوت حدثت معركة عين جالوت الشهيرة عام (658هـ/1260م). يُنظُر: شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، المصدر السابق، 177/4؛ سامي بن عبدالله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الملك فهد، ط1، الرياض، 2009م، ص184.

66- ستيفن رانسمان، المصدر السابق، 498/2.

67- بهاء الدين بن شداد، المصدر السابق، ص 233؛ ستيفن رانسمان، المصدر السابق، 68/3، 69.

68- تورانشاه: ابن السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب كان حاكماً على حصن كيفا والرها، وبعد وفاة أبيه بُويع سلطاناً على الأيوبيين. يُنظُر: شهاب الدين بن عبد الرحمن بن إسماعيل أبوشامة، الذيل على الروضتين، تقديم: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002م، ص282.

التي تحمل المؤن إلى دمياط، وتعرض على إثرها الجيش الصليبي إلى مجاعة كانت سبباً في تفشي كثيرٍ من الأمراض والأوبئة، وعلى إثرها عمل الصليبيون على التفاوض مع المسلمين للخروج من الأزمة، ولكن الوقت لم يسعفهم نتيجة لتفشي الوباء في أفراد الجيش وتراجعت قوات الصليبيين إلى دمياط، وفشلت الحملة الصليبية وأُسر الملك لويس التاسع[69](Louis IX) وكبار قادته[70].

3- التجسس:

برع الصليبيون في التقاط أخبار المسلمين، وكان للجواسيس دور فعال في كشف عورات المناطق الإسلامية[71] ففي عام (504هـ/1110م) أثناء حصار الصليبيين لمدينة صيدا حاول كبار رجالات المدينة رشوة أحد المقربين من الملك، ووعدوه بمبلغ مجزي من المال بالإضافة إلى ممتلكات واسعة بالمدينة مقابل اغتيال الملك بلدوين الأول، ولكن جواسيس النصارى بالمدينة أخبروا الملك بهذه المؤامرة سراً فقام الملك بالقبض على ذلك الشخص وتمت محاكمته وأعدم شنقاً بتهمة الخيانة[72].

69- لويس التاسع (1226هـ-1236م): تولى الحكم في فرنسا بعد أبيه الملك لويس الثامن، أصيب لويس التاسع بمرض ألزمه الفراش، ويئس المحيطون به من حياته وانتظروا خبر موته، غير أنه في إحدى إغفاءاته نذر على نفسه إن أنجاه الله ليذهبن على رأس حملة صليبية من فرنسا لاسترداد بيت المقدس من المسلمين، وكان على رأس الحملة الصليبية السابعة واصطحب معه زوجته الملكة مارجريت دي سروفانس، وأخاه شاول كونت أنجو. روثلان، تتمة كتاب وليم الصوري لمؤلف مجهول والمنسوب خطأً لروثلان، ترجمة: أسامة زكي، مركز الدلتا للطباعة، القاهرة، 1989م، ص6؛ جوزيف نسيم، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبوعات الحديثة، (د.ط)، القاهرة، (د.ت)، ص6.

70- جوانفيل، المصدر السابق، 112/35، 113، 119؛ هانز ابرهارد ماير، المصدر السابق، ص461.

71- محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص165.

72- محمود محمد الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، 2/292-293؛ عبد الوهاب حسين: مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ص107.

تعتبر الجوسسة من العناصر الأساسية لإدارة أي معركة، إذ كان قادة الجيوش يعتمدون على الجواسيس أكثر من اعتمادهم على الخطط الحربية حيث يزود الجواسيس قادة الجيوش بمواطن الضعف والخلل عند جيش العدو، وكذلك الأسلحة التي يستخدمها، وهم الذين يقودون القادة إلى أيسر الطرق التي يمكن أن تمر من خلالها الجيوش[73]، وقادة الجيش الصليبي ليسوا بمعزل عن ذلك إذ كانوا يتطلعون إلى معرفة الخطط الحربية داخل المعسكر الإسلامي عن طريق الجواسيس الذين كانوا يجندونهم لتلك المهام، وعلى ضوء المعلومات التي كانت تردهم كانوا يقومون بتغيير خططهم العسكرية، ففي عام (585هـ/1189م) استطاع المركيز كونراد مونتفرات[74](Conrad de mentferrat) المحافظة على مدينة صور رغم محاولات صلاح الدين الأيوبي المتكررة للاستيلاء عليها، وذلك عن طريق إرسال جواسيس لمعرفة الخطط العسكرية وأخبار المسلمين أثناء حصارهم للمدينة[75].

كما استخدم الصليبيون النساء كجواسيس لمعرفة ما يدور في المعسكر الإسلامي، عن طريق إغراء بعض أفراد الجيش الإسلامي[76].

حيث انزلق بعض الفسقة والجهال من جيش المسلمين في فخ الصليبين إذ كانت تتردد بعض نساء الفرنجة على القوات المرابطة بالقرب من معسكرات المسلمين ويترصدن أسرار المعسكر الإسلامي عن طريق إغراء بعض أفراد الجيش ويصفهن العماد بقوله: "وأقمن في قباب

73- جمال الدين الشيال، الجاسوسية في حرب الأيوبيين، مجلة المقتطف، ع 5، القاهرة، 1941م، ص466.

74- كونراد مونتفرات: هو ابن المركيز مونتفرات، كان يقيم في القسطنطينية واضطر إلى مغادرتها بعد أن تورط في جريمة قتل وقرر أن يبحر سراً إلى الحج للأراضي المقدسة، تسلم القيادة في مدينة صور وقام بتحصينها والدفاع عنها. ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2002م، ص97.

75- ستيفن رانسمان، المرجع السابق، 528/2؛ موضى بنت عبد الله السرحان، المرجع السابق، ص386.

76- موضى بنت عبد الله السرحان، المرجع السابق، ص387.

معروفة معلومة، وأنضمّ إليهن أترابهن من الحسان الشواب، وفتحن أبواب الملاذ وسبلن ما بين الأفخاذ... وترفعن عن ستر المكنون... وأطلعن الأشرار على الأسرار..."[77].

بالإضافة إلى النساء استخدم الصليبيون البدو في التجسس ومعرفة أيسر الطرق وأسلمها لجيوشهم[78]، ففي عام (647هـ/1249م) أثناء الحملة الصليبية السابعة نجح الملك لويس التاسع بعبور مخاضة سلمون[79] بعد أن عجز الصليبيون عن عبور نهر النيل عبر إقامة الجسور، نظراً لدفاع المسلمين إذ قام أحد البدو بإرشاد الصليبيين إلى تلك المخاضة مقابل مبلغ من المال[80].

وختاماً توصلت الدراسة للنتائج التالية:

- أوضحت الدراسة أن القيادة العسكرية للجيش الصليبي في مملكة بيت المقدس، كانت بيد حكام وملوك أكفاء؛ نجحوا في إدارة شؤونها على الصعيدين السلمي أو العسكري؛ نظراً لما تمتعوا به من نظرة ثاقبة، ومراعاة للأعراف والتقاليد المعمول بها في أوروبا الغربية، فضلاً عن استخدامهم لصلاحيات الممنوحة لهم من المحكمة العليا؛ لضمان بقاء نفوذهم وسيادتهم على هذه الأصقاع المقدسة.
- تبين من خلال هذه الدراسة رغم الاستقلال شبه التام الذي تمتع به ملوك بيت المقدس؛ إلا أنهم عجزوا عن فرض سيطرتهم على بعض النجدات القادمة من أوروبا، وبعض الهيئات الدينية؛ لارتباطها بالبابوية بشكل مباشر، مما سبب في إحداث ضعف في التنظيمات

77- أبوعبدالله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، المصدر السابق، ص466.

78- موضى بنت عبد الله السرحان، المرجع السابق، ص388.

79- مخاضة سلمون: تقع في بحر أشموم نسبة إلى أشمو مطناح إحدى المدن المصرية القديمة كما يسميها الكتاب المسلمون، ويطلق عليها بعض المؤرخين اللاتين مثل متى وروثلان باسم بحيرة اثنينتن، وهذه المخاضة يستطيع الفرسان عبورها بعيداً عن أعين الرقباء، وقد استمرت قاعدة لإقليم الدقهلية إلى آخر عصر المماليك. روثلان، المصدر السابق، ص 164؛ جوزيف نسيم، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص46-47.

80- جوانفيل، المصدر السابق، ص88؛ روثلان، المصدر السابق، ص173.

العسكرية للجيش الصليبي على مستوى الأساليب والخطط، الذي استفادت منها حركة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين في تلك الفترة.

- أظهرت الدراسة أن القوة العسكرية للجيش الصليبي كانت ترتكز على التماسك والتوافق الداخلي بين قواته من الفرسان والمشاة، الأمر الذي دفع قادة الجيوش الإسلامية؛ للعمل على إضعافه، بذلك نجحوا في تحقيق انتصارات كبيرة على هذا الجيش في معارك فاصلة منها معركة حطين.
- أوضحت الدراسة حدوث تطور في الذهنية القتالية للجيش الصليبي، ترتب عنه تطور في الهيكلية العسكرية التنظيمية لهذا الجيش؛ وذلك راجع لاحتكاكهم بجيوش المسلمين في عدة معارك ومواقع حربية، وأخذهم بعض الفنون القتالية عنهم؛ فضلاً لمعرفتهم بطبيعة المنطقة الجغرافية بعد استقرارهم فيها.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية.

- أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري بن الأثير (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: سمير شمس، دار صادر، ط1، بيروت، 2009م.
- صفي الدين عبد المؤمن عبد الحق البغدادي (ت739هـ/1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1954م.
- شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت676هـ/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م.
- محمد بن عبد المنعم الحميري (ت727هـ/1327م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1974م.
- شهاب الدين بن عبد الرحمن بن إسماعيل أبوشامة (ت665هـ/1267م)، الذيل على الروضتين، تقديم: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002م.
- بهاء الدين بن شداد (ت632هـ/1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1994م.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني (ت597هـ/1201م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، (د.م)، (د.ت).
- أبويعلى حمزة بن القلانسي (ت555هـ/1160م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة المتنبي، القاهرة، (د.ت).
- أسامة الكناني الشيزري بن منقد (ت584هـ/1188م)، الاعتبار، تحقيق: عبد الكريم الأشتر، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 2003م.
- شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري المقدسي، (عاش في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، لندن، 1877م.
- تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي المقريزي (ت845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997م.

- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت697هـ/1298م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية المعربة.

- أرنول، وصف أوضاع مدينة القدس والأماكن المقدسة (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج 8، دمشق، 1993م.
- آنا كومونينا، الكسيادة، ترجمة: حسن حبشي دار المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2004م.
- أولفر أوف بادريون، الاستيلاء على دمياط، (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج 33، دمشق، 1998م.
- براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة: عبدالحافظ عبدالخالق البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، القاهرة، 2001م.
- بطرس تيوتوبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعة، ط1، القاهرة، 1999م.
- جوانفيل، حياة القديس لويس (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، ج 35، دمشق، 1998م.
- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية، 1989م.
- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1991–1994م.
- وليم الصوري، ذيل تاريخ وليم الصوري (منشور ضمن الموسوعة الشامية للحروب الصليبية)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1993م.
- وليم الصوري، ذيل وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2002م.
- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد الشاعر، ط2، مؤسسة الإسراء للنشر، القاهرة، 1998م.

- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، (د. ت).
- ستيفن رانسمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، القاهرة، 1994م.
- روثلان، تتمة كتاب وليم الصوري لمؤلف مجهول والمنسوب خطأً لروثلان، ترجمة: أسامة زكي، مركز الدلتا للطباعة، القاهرة، 1989م.
- ر سي سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ترجمة: محمد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية، ط1، دمشق، 1985م.
- فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الشروق، عمان، 1990م.
- هانز ابرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد الدين غانم، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1990م.

ثالثًا: المراجع العربية.

- عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1997م.
- محسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عصر صلاح الدين، ط2، منشورات وزارة التربية أربيل، أربيل، 2003م.
- محمود محمد الحويرى، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979م.
- محمد الخطيب، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار علاء الدين للنشر، دمشق، 2006م.
- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، دار الهدى، ج2، (د.م)، 1991م.
- موضى بنت عبدالله السرحان، تنظيمات الصليبيين في مملكة بيت المقدس وأثرها على أوضاعهم في بلاد الشام، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، الرياض، 2006م.
- جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ط1، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، 2000م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط9، القاهرة، 2010م.

- سامي بن عبدالله المغلوث، أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الملك فهد، ط1، الرياض، 2009م.
- نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، 1994م.
- جوزيف نسيم، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، مؤسسة المطبوعات الحديثة، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1981م.

رابعاً: المجلات العلمية.

- جمال الدين الشيال، الجاسوسية في حرب الأيوبيين، مجلة المقتطف، ع5، القاهرة، 1941م.
- قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج 27، 1981م.